الفصل السادس

التطهـــــر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الأحزاب – الآية ٧٣].

(١)

لم تنس قريش قتلاها ببدر لحظة واحدة، فالنساء لا يكففن عن مضغ الأحزان، وتفلها فى وجوه الرجال، لدفعهم دفعا للتعجيل بقتال محمد ﷺ وصحبه.

وبدأت الحشود تتجمع فى مكة من كل مكان، حتى وصلت إلى أكثر من ثلاثة آلاف رجل، وآلاف من البعير، وخمسمائة فرس، وأخذ الخوف والقلق بتلابيب العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، فبعث برسالة لابن أخيه يحذره مما جمعته وأجمعت عليه قريش.

فى غرة شوال، وبعد أن اكتملت الحشود، وتم إعداد السلاح والعتاد، تحركت القوات وقد ولى القيادة أبو سفيان بن حرب، كما انضمت إلى الحشود خمس عشرة امرأة على رأسهن هند بنت عتبة، يحرضن الرجال، ويحثونهم على قتل المسلمين، ولقد وعدت هند بأن تهب ذهبها وحليها لمن يقتل حمزة قاتل أبيها، وتخيرت لذلك عبدا حبشيا قوى البنيان، عرف بقدرته الخارقة على استخدام الرمح، اسمه وحشى، وحين لقيته، واصلت نفث حقدها فيه، وقالت له محرضة:

– لو قتلته يا وحشى، وشفيت غليلى، سوف أدفع ثمنك لسيدك، وأعتقك لتصبح حرا.

وصل رسول العباس رضى الله عنه إلى مسجد قباء، حيث كان رسول الله ﷺ يدارس أصحابه، وقرأ أبى بن كعب الرسالة على رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يكتمها، ولا يذيعها، ومشى رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبات ليلته، فأرى فى منامه بقرا يذبح، وثلما فى ذبابة سيفه، وأنه أدخل يده فى درع حصينة، وأنه ذابح كبشا.

ولما أصبح، أرسل نبى الله ﷺ بشابين من شباب المسلمين، ليستطلعا مداخل المدينة، وعاد المستكشفان مسرعين، فأخبراه بأن قريشا برجالها وخيلها وعيرها تعسكر على مشارف المدينة، وقد أطلقوا دوابهم ترعى الزرع، حتى أتت على كل ما هو أخضر!.

وتكلم الناس بالخبر، وتجمعوا بعد صلاة الجمعة حول رسول الله ﷺ، وقد تنادوا للقتال، فأبلغهم بما جاءه من عمه العباس، وبصدق الرسالة بعدما تأكد وصول قريش تبغى القتال، ثم حدثهم بالرؤيا

التى رأى، فتساءل الحضور:

– وما تأويلك لها يا رسول الله؟.

قال ﷺ:

– فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون، وأما الثلم فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى، وأما الدرع الحصينة فهى المدينة، وأما الكبش فإنى أقتل حامى القوم.

ثم قال:

– أشيروا على، فإن رأيتم فأقيموا بالمدينة وندعهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم، فنحن أعلم بها منهم.

فوافقه أكثر الصحابة من المهاجرين والأنصار، وقالوا إن الرأى هو ما رأى رسول الله ﷺ، وأكد الأنصار على صواب رأيه، فقالوا:

– يا رسول الله أقم بالمدينة، ولا تخرج، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من وراءهم، وإن رجعوا، رجعوا خائبين كما جاءوا.

ولكن الكثرة الحاضرة من الشباب، والراغبين فى الشهادة، أخذتهم الحمية لدينهم، وقالوا:

– يا رسول الله، أخرج بنا إلى عدونا.

فأعرض عنهم الرسول ﷺ، وهم يعيدون ما قالوا فى إصرار، وهنا قال حمزة رضى الله عنه وطائفة من الأنصار:

– إنا نخشى يا رسول الله، أن يظن عدونا فى عدم خروجنا إليهم، أنا جبنا عن لقائهم، فيكون منهم جرأة علينا، ولقد كنت يا رسول الله يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به فساقه الله إلينا فى ساحتنا.

ولم يزالوا يلحون على رسول الله ﷺ بالخروج وهو كاره، وبدأت أصوات المؤيدين تزداد وتغلب شيئا فشيئا، حتى ترجح عنده الرأى بالخروج.

ونهض رسول الله ﷺ إلى داره، فسارع الناس يتجهزون للخروج، وتناوبوا حراسة مداخل المدينة، خوفا من أن يدخلها عليهم القرشيون خلسة، وقاموا على حراسة رسول الله ﷺ ليلا.

(٢)

اليوم: السبت، السابع من الشهر.

الشهر: شوال.

السنة: الثالثة من الهجرة.

صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم وقف فى المصلين خطيبا، وكانوا سبعمائة رجل. وبعد أن حمد الله تعالى واثنى عليه، قال:

– يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته، والتناهى عن محارمه، ثم إنكم منزل أجر وزخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من الصبر عليه إلا من عزم الله له وشده، فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله. وعليكم بالذى أمركم به فإنى حريص على رشدكم، وإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحب الله ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر.

يا أيها الناس، إنه قذف فى قلبى أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه، ومن صلى علىّ صلى الله عليه وملائكته عشرا، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنى حميد.

ما أعلم من عمل يقربكم من الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها، ولا ينقص منه فى شىء وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجملوا فى طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه على معصية ربكم، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته، قدّ بين لكم الحلال والحرام، غير أن بينهما شبهات لم يعلمها كثير من الناس، إلا من عصم الله، فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى، أوشك أن يقع فيه، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد، والسلام عليكم.

ووقف أبو سفيان بن حرب خطيبا فى المشركين فقال:

– يا بنى عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فنزلت بنا المصائب، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إن هى زلت زلوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه.

وثار عليه بنو عبد الدار، وتوعدوه قائلين:

– ستعلم غدا إذا التقينا، كيف نصنع؟.

وأخفى أبو سفيان ابتسامة الرضا التى علت وجهه، فلقد استطاع أن يحقق ما يصبو إليه من إثارة حمية أصحاب اللواء.

وحانت صلاة العصر، وقد تم احتشاد المسلمين، ووصل عددهم لما يزيد على الألف رجل، وصلى بهم رسول الله ﷺ، ثم دخل بيته، وتحدث المجتمعون عن مخالفة بعضهم لرغبة رسول الله فى البقاء بالمدينة، والدفاع عنها من الداخل، وقالوا للراغبين فى الخروج:

– لقد شققتم على رسول الله ﷺ، وما كان ينبغى لكم، فإذا ما خرج علينا، تحدثتم إليه برغبتكم فى إطاعة أمره.

فلما خرج إليهم رسول الله ﷺ، وقد لبس ملابس الحرب، قالوا له:

– يا رسول الله لقد رأيت أن تبقى فى المدينة، وما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك.

فأجابهم رسول الله ﷺ: قائلا:

– دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، امضوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم.

واستعرض جند الله، وسار بهم خارجا من المدينة، ولكن ثلاثمائة رجل من المنافقين وأشياعهم، نكصوا على أعقابهم، ودعواهم أن رسول الله لم يستمع إلى مشورتهم ويبق بالمدينة، بينما واصل جند الله زحفهم فى عزم.

وبدأت الحرب، ورمى حملة النبل فرسان المشركين، من فوق جبل «أحد» فأثخنوهم بالجراح، وأبلى المسلمون من الراجلين، فى مواجهة قريش وأتباعها بلاء حسنا، فجعلوهم يفرون فرارا من ميدان القتال، وأخذت الجند المسلمة تجمع الغنائم، وحين رأى حملة النبل من فوق الجبل ما يحدث أسفله، حدثتهم أنفسهم بأن ينزلوا عن الجبل ليغنموا كما غنم غيرهم، ونفث إبليس فيهم أكثر وأكثر، حتى لم يصبحوا رائين إلا الغنم والغنائم، وضاعت تحذيرات زملائهم ممن لم ينسوا وصية رسول الله ﷺ، وكان قد أوصاهم ألا يغادروا أماكنهم بالجبل، مهما جرى من أحداث: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة المائدة – الآية ٩٢].

وهكذا جاء العصيان الثانى، وانكسر سهم المسلمين.

فلقد انتهز خالد بن الوليد فرصة نزول حملة النبل، واعتلى الجبل ومعه الرماة، بينما اندفعت جند قريش ملتفة من خلف الذين شغلتهم أمور دنياهم من المسلمين، فأعملوا فيهم سيوفهم ونبلهم ورماحهم، واستطاع «وحشى» أن يقتل حمزة عليه السلام، وقتل معه أربعة وسبعون من المسلمين، وجرح رسول الله ﷺ وسال دمه الشريف، وأشاع المشركون أنه قتل.

نادى منادى رسول الله: مذكرا بأمر الله وبوعده، ومبينا أن رسول الله حى، فارتعدت القلوب بالحب والفرحة واندفع من بقى من المسلمين بأرض المعركة يلتفون حول الحبيب ﷺ، وقد هانت عليهم أرواحهم، فجعلوا من أجسامهم درعا يدرءون به الأذى عن الحبيب محمد ﷺ، وصعدوا جبل «أحد» ومعهم رسول الله ﷺ وتحصنوا به، وأنزل الله عليهم رحمته فأنامهم نوما عميقا أخذهم للحظات، أفاقوا منها وقد اغتسلت أرواحهم مما أصابها من خوف وهلع، ونشطت أبدانهم المكدودة؛ بينما انشغل المشركون بالتمثيل بقتلى المسلمين، فبقروا منهم البطون وفقئوا العيون، وقطعوا الآذان والأنوف، حتى وصل الحال بهند بنت عتبة أن بقرت بطن حمزة، وأخرجت كبده وقضمت منه بأسنانها، ولكن الله منعها عن بلعه وجعله نارا أحرقت شدقيها، فبصقته!!..

ثم أتى أبو سفيان بفرسه، ووقف حيث تحصن المسلمون، ورفع بصره لأعلى وقد أخذه الكبر كل مأخذ، لكنه لم يبصر شيئا فأرخى جفنيه مخذولا، وأطرق برأسه للحظات وقد أخذه الخوف من أن

تكون لعنة محمد قد حلت به، وسرعان ما أدرك شيطانه الخطر الذى حاق بصاحبه، فنفث فيه فنادى، والكبر والكفر تفوح رائحتهما عفنة كريهة فى كلماته:

- أعل هبل.

فقال رسول الله ﷺ:

- قم يا عمر، فأجبه.

فنهض عمر بن الخطاب، وقال بصوت أوب معه الجبل، قال:

- الله أعلى وأجل.

قال أبو سفيان:

- إنها قد أنعمت علينا، فهذا يوم بيوم بدر، إن الأيام دول، وإن الحرب سجال، وحنظلة بحنظلة.

وأخذ أبو سفيان بن حرب يعدد قتلى بدر من المشركين، وقتلى أحد من المسلمين، ويقول فلان بفلان، وفلان بفلان..

فقال له عمر رضى الله عنه:

- إنه لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

قال أبو سفيان:

- إنكم تقولون ذلك، لنا العزى ولا عزى لكم.

قال عمر رضى الله عنه:

- الله مولانا ولا مولى لكم.

قال أبو سفيان:

- قم إلى يا بن الخطاب، أكلمك، أنشدك بدينك: هل قتلنا محمدا؟.

قال عمر رضى الله عنه:

- اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

قال أبو سفيان:

- أنت أصدق عندى من كل من قالوا.

ثم سكت قليلا وقال:

- ألا إن موعدكم بدر الصفراء، فى العام القابل.

فقال رسول الله ﷺ لعمر:

- قل له نعم.

فقال عمر رضى الله عنه:

- نعم هو بيننا وبينكم موعدا.

وقبل أن يستدير أبو سفيان بفرسه، قال:

– إنكم واجدون فى قتلاكم مثلا، إلا إن ذلك لم يكن عن رأيى، وما رضيت به، وما سخطت، وما نهيت عنه، وما أمرت.

وانصرف، وانصرفت معه جند المشركين متوجهين إلى مكة، حينئذ نزل المسلمون، ومعهم رسول الله ﷺ من جبل أحد، وأخذوا يتفقدون قتلاهم، وكان رسول الله ﷺ لا يكف عن سؤال من حوله عن حمزة، قائلا:

– ما فعل عمى؟.

فلما وقف على جثمانه، ورأى بطنه وقد بقرت، وأنفه وأذنيه وقد قطعت، قال:

– لن أصاب بمثلك أبدا، ما وقفت أبدا موقفا أغيظ إلى من هذا، ولولا أن تحزن نساؤنا، ويكون سنة من بعدى، لتركته حتى يحشر يوم القيامة من بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين من رجالهم.

وتألم من شهدوا الحبيب ﷺ أشد الألم، لحال الأسى والحزن التى كان عليها، وقالوا متوعدين:

– والله لئن أظفرنا الله بقريش يوما من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب.

وتنزل قول الحق بآيات موقظا للنفوس الثكلى، مؤصلا للعدل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة النحل – الآية ١٢٦].

واستجاب نبى الله ﷺ لأمر ربه، وأعلن أنه قد عفا وصبر، ونهى المسلمين عن التمثيل بالموتى، ثم أمر بجمع القتلى، وقال:

– لفوهم بدمائهم وجراحهم، فليس أحد يجرح فى الله تعالى، إلا جاء يوم القيامة جرحه لونه لون دم، وريحه ريح مسك.

ولما عاد جيش المسلمين إلى المدينة، كان كل ما يهم من بقى بها من المسلمين، السؤال فى لهفة عن الحبيب ﷺ، فلقد أبلغهم اليهود شامتين فرحين مهللين، أن نبيهم قد قتلته قريش، وحين اكتحلت عيونهم برؤيته، توحدت مقالتهم بالصدق:

– أما وقد رأيناك سالما، فقد هانت كل مصيبة.

بينما انتهز اليهود والمنافقون ما حدث لمواصلة الشماتة، فأظهروا العداوة والبغضاء، وأخذوا يدعون الناس للانفضاض عن رسول الله قائلين:

– إن الأنبياء لا تصاب فى أبدانها ولا فى أصحابها، وما محمد إلا طالب ملك، ولو كان من قتل منكم بقوا مثلنا ما ماتوا، وما قتلوا.

وسار عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما سمع إلى رسول الله ﷺ، يستأذنه فى قتل كل من يشيع هذا الحديث، فقال له نبى الله ﷺ فى ثقة:

– يا عمر، إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه، ولليهود ذمة وعهد، فلا أقتلهم.

قال عمر:

– فما بال هؤلاء المنافقين؟!!

قال رسول الله ﷺ:

– أليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟.

قال عمر رضى الله عنه:

– بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك خوفا من السيف، فقد بان لنا أمرهم وظهرت حقيقتهم عند هذه النكبة.

قال رسول الله ﷺ:

– يا ابن الخطاب، نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ وإن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن.

(٣)

جاوز اليهود حدود الوقيعة بين المسلمين والطعن فى دين الله، إلى الرغبة فى إيقاع الأذى برسول الله ﷺ، وعمدوا إلى السحر حتى أعياهم السعى، ولم يصيبوا رسول الله ﷺ بأذى؛ فذهبوا إلى لبيد ابن الأعصم، وهو من أعلمهم بالسحر والسم، وقالوا له:

– يا أبا الأعصم، أنت أسحرنا، ولقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا، وأنت ترى أثره فينا، وخلافه ديننا، ومن قتل منا ومن أجلى، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا يؤذيه، ولك من أموالنا ما تشاء.

ومرض رسول الله ﷺ مرضا شديدا، فما كان يدرى مما يشتكى، وطال به المرض، فتوجه إلى الرحمن الرحيم يسأله أن يكشف عنه الغمة، فأتاه جبريل وميكائيل، فجلس الأول عند رأسه، وجلس الثانى عند رجله، فقال ميكائيل:

– يا جبريل إن صاحبك شاك.

قال جبريل عليه السلام:

– أجل.

فقال ميكائيل عليه السلام:

– وما وجع الرجل؟.

قال جبريل عليه السلام:

– مطبوب.

قال ميكائيل عليه السلام:

– فمن الذى طبه؟.

قال جبريل عليه السلام:

– لبيد بن الأعصم اليهودى.

قال ميكائيل عليه السلام:

– فبماذا؟.

قال جبريل عليه السلام:

– فى مشط ومشاقة وجف طلع نخلة ذكر.

قال ميكائيل عليه السلام:

– وأين هو؟.

قال جبريل عليه السلام:

– فى بئر ذى أروان تحت صخرة فى الماء.

قال ميكائيل عليه السلام:

– فما دواء ذلك؟.

قال جبريل عليه السلام:

– تنزح البئر، ثم تقلب الصخرة فتؤخذ الكدية، فيها إحدى عشرة عقدة فتحرق، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى.

وأرسل نبى الله ﷺ عليا وعمارا، فاستخرجا الجف، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ، وإذا وتر قوس معقود إحدى عشرة عقدة مغرزه بالإبر.

ونزل جبريل عليه السلام بسورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

ثم بسورة الناس، ومجموع آيات السورتين، إحدى عشرة آية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

فكان إذا ما قرأ رسول الله ﷺ آية منها انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة وجد لها ألما، ثم وجد بعدها راحة.

وأمر رسول الله ﷺ بالبئر فطمرت، وتسابق فرسان المسلمين إلى الحبيب ﷺ يطلبون أن يأذن لهم بقتل لبيد بن الأعصم، ولكنه رفض أن يقتل الساحر، وقال مفوضا أمره إلى الله:

– ما وراءه من عذاب أشد.

وفى شهر ربيع الأول، من ذات العام الثالث من الهجرة، عمد يهود بنى النضير إلى محاولة قتل رسول الله ﷺ حين ذهب إليهم ليدفع دية قتيلين من قتلاهم، قتلا خطأ، وتظاهروا بالرضا والقبول

بالديـة، بينمـا هم يمكرون مكرهم؛ وجـاءه الوحـى فنبأه بأن اليهود قد اتفقوا علـى قتله، وأن هناك يهوديا قد اعتلى الجدار الذى يسـتند إليه، وقد تهيأ ليلقى عليه بحجر ليقتله، فترك رسـول الله ﷺ مكانه فجأة، وغادر ناديهم.

ولما رجع إلى المسـجد، بعث إليهم برسـول يكشـف نيتهم على الغدر، ونقضهم العهد الذى عاهدوا عليه الله ورسـوله، ثم أمرهم بالجلاء عن المدينة خلال عشـرة أيام، ومعهم نسـاؤهم وأبناؤهم وأموالهم، ومن رؤى منهم بعد ذلك الموعد؛ ضرب عنقه.

وسـب اليهود من أبلغهم الرسالة، وسبوا المسـلمين، وطعنوا فى الدين، مظهرين عداءهم، وقالوا لن نخرج، ونحن على حربكم قادرون، وأغلقوا عليهم أبواب حصونهم، وتجهزوا لحرب المسلمين.

وخرج المسـلمون لقتال اليهـود، وأحاطوا بحصونهم، ولكن اليهود لم يخرجـوا من حصونهم لقتال المسـلمين، وكل مـا فعلـوه أن راحوا يسـبونهم بأقذع الألفاظ مـن وراء الأسـوار، ويرمونهم بالحجارة وبالسـهام، وأثناء الأيام السـتة الأولى من الحصار، حرمت الخمر، وتنزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة المائدة – الآية ٩٠].

وبهـذا حرمت الخمر على المسـلمين تحريما كاملا، بعد أن كانـت مباحة فى غير مواعيـد الصلاة، وهو ما كان يسبب الحزن لدى من حسن إيمانه؛ فكان عمر بن الخطاب يدعو الله ليل نهار أن يحرمها على المسلمين، كراهية لها، لما كانت تحدثه من مهانة لمن يشربها.

مضت على الحصار عشـرة أيام كاملة، ثم بدأ المسـلمون يدمرون أملاك اليهود، حتى يقطعوا لديهم باب الأمل فى البقاء، فشق ذلك على هود، وبعث سيدهم حيى بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يعلن بأنه يقبل الخروج هو ومن معه بسلاحهم وأموالهم، فرد عليه رسول الله ﷺ بقوله:

– لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها، ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل إلا السلاح.

وثار الخلاف بين اليهود، فهم بين موافق ورافض، وآثرت قلة ممن دخل الإيمان قلوبهم، أن تنزل إلى رسول الله ﷺ وتعلن إسـلامها، فأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأهليهم.

وبعد أيام أعلن اليهود قبولهم لما عرض رسول الله ﷺ، ثم أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم، والمسلمون يكملون تدمير ما يتبقى، ثم حمل اليهود ذريتهم ونساءهم وأموالهم وكل ما استطاعوا حمله، على ستمائة بعير، وتحرك موكبهم والنساء يجهرن بالغناء، ويضربن الدفوف، معلنات فرحتهم بالرحيل، وما كانت هذه هى حقيقة مشاعرهم، فما فعلوا ما فعلوا إلا كراهية لشماتة المسلمين فيهم، إذا ما هم أظهروا حزنهم الذى يعتمل فى أعماقهم!!.

٤

جاء عامر بن الأشـهل من أهل نجد إلى رسـول الله ﷺ، فعرض عليه رسـول الله الإسلام، لكنه لم

يسلم، وقال:

– يا محمد، إنى أرى أمرك هذا حسنا شريفا، فلو أنك بعثت معى نفرا من أصحابك إلى قومى، لرجوت أن يستجيبوا لك ويتبعوا دعوتك.

قال رسول الله ﷺ:

– إنى أخاف عليهم أهل نجد.

قال عامر:

– لا تخف عليهم، فأنا جار لهم.

وكان هناك من الأنصار سبعون رجلا، دائبين على تدارس القرآن حتى تفقهوا فيه، فبعثهم الرسول ﷺ مع عامر، وأعطاهم كتابا إلى عامر بن طفيل يدعوه فيه إلى الإسلام، فساروا معه حتى إذا وردوا بئرا لبنى سليم، عسكروا حولها، وجعلوا على ركائبهم اثنين منهم، وبعثوا بكتاب رسول الله ﷺ مع واحد منهم إلى ابن طفيل، فلم يقرأ الكتاب، بل وثب على الرسول فقتله، ثم استصرخ قومه ليهبوا لقتال القراء، ولكن قومه أبوا وقالوا له:

– لن نخذل عامر ونقاتل رجالا أعطاهم جواره.

فاتجه إلى قبائل بنى سليم يستعديهم، فاستجابت له، وحصروا القراء، وأعملوا فيهم القتل، حتى أفنوهم عن آخرهم، فلما عاد حارسا الركائب، وجدا أصحابهم قد قتلوا، فقاتلا بنى سليم فى استماتة، فقتل أحدهما، وأسر الثانى، فلما عرف بنو سليم أنه من قبيلة مضر التى بينهم وبينها عهد، أطلقوا سراحه، فعاد إلى المدينة، وأخبر رسول الله ﷺ بما حدث، فحزن على القراء حزنا شديدا، ودعا الله تعالى أن يجعل ثأرهم فيمن قتلهم.

ودارت الأيام دورتها.

وحل موعد بدر الصغراء، وبدأ رسول الله ﷺ يعد العدة للخروج، وبعثت قريش بمن دفعت إليه الأموال، وأغدقت عليه الهدايا، وأجذلت له العطاء، ليتسلل إلى صفوف المسلمين، فيفت فى عضدهم حتى لا يخرجوا، بعد أن سمعوا بتجهزهم للخروج للقائهم، وأرجف المنافقون فى المدينة، حتى دب الوهن والنكوص فى نفوس المسلمين، ولكن رسول الله ﷺ، قال:

– والذى نفسى بيده، لأخرجن، وإن لم يخرج معى أحد.

وما إن سمعت كلمات الحبيب ﷺ فى المدينة، حتى دفع الله بالحمية فى نفوس المسلمين، فتدافعوا خارجين للقاء المشركين، حتى عسكروا ببدر، وشعارهم أمام المرجفين بقوة قريش:

– حسبنا الله ونعم الوكيل.

وتنزل قول رب العالمين بسورة آل عمران، مبديا رضاه عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

وشملتهم نعم الوكيل سبحانه وتعالى، فلم يلاقوا عدوا، ولا خاضوا حربا، فلقد سار أبو سفيان بن حرب بألفين من قريش، وهو يشعر بتخاذل شديد، وعدم رغبة فى قتال المسلمين، فلقد جاء عامهم هذا عام جدب وقفر، فالمراعى لا كلأ فيها، والعير مرهقة، والناس يشعرون بالهزيمة، قبل أن يلاقوا عدوا أو يخوضون حربا، وهو يظن نجاح رسله فى إثناء المسلمين عن الخروج للحرب، وبهذا يكون قد حفظ ماء وجهه أمام العرب، وأوفى بما عاهد عليه، فلما عسكر الجند فى يومهم الأول، جمع أصحابه، وقال لهم:

- يا معشر قريش، إن عامكم هذا عام جدب، ولا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون اللبن، وإنى راجع، فارجعوا.

ووافقوه جميعا فيما قال، وعاد بجيشه بعد يومين من خروجه، فسخر منه من بقوا بمكة، وقالوا عن جيشهم:

- إنه جيش السويق، فلقد خرج أبو سفيان وجنوده ليشربوا السويق فى الجبل، ثم عادوا!!.

وقال صفوان بن أمية لأبى سفيان:

- قد والله نهيتك يوم «أحد»، أن تعد القوم، وقد ارتقوا علينا الآن، ورأونا قد خلفناهم، وتسامع العرب فى كل مكان، بأن قريشا قد أخلفت موعدها مع المسلمين، وأن المسلمين قد وفوا وخرجوا لهم، فازدادت بهذا هيبة الإسلام فى النفوس، بالقدر الذى ضعفت به الثقة بقريش.

وأثارت كلمات صفوان الحمية فى القرشيين، وجعلتهم يتعاهدون على خوض حرب جديدة ضد محمد ﷺ وصحبه، مهما بذلوا من أجلها، فجمعوا من بينهم المال لإعداد الجيش.

بينما مكث جيش المسلمين فى بدر ثمانية أيام، وكانت سوق بدر قائمة، فباعوا ما كان معهم من تمر ودقيق، وربحوا فى تجارتهم ربحا عظيما، عوضهم به الله عما كانوا سيغنمونه من قريش.

٥

تفرق يهود بنى النضير بين الشام وخيبر، وظل الحقد يأكل صدورهم، والشيطان ينفث فى نفوسهم، ويزين لهم قتال محمد ﷺ، واجتمع رأيهم على أن ينفثوا عما فى صدورهم، ووجههم شيطانهم إلى قريش يستنفرونها، ويحرضونها، واتجه وفد منهم بزعامة سيدهم سلام بن أبى الحقيق، وحيى بن أخطب، وانضم إليهم رأس النفاق والكفر أبو عامر الراهب، وذهبوا إلى دار الندوة قائلين:

- يا سادة قريش لقد جئنا نحالفكم على عداوة محمد، وسنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فنهض أبو سفيان بن حرب كالشيطان مهللا، يقول:

- أهلا بكم ومرحبا، فأحب الناس إلينا من أعاننا على قتال محمد ومعاداته.

ثم أراد أن يتأكد من صدق يهود، فالعرب أعلم الناس بخداعهم ومكرهم، فقال:

– يا معشـر اليهود، أنتم أهل الكتـاب الأول، والعلم بما نختلف فيه مع محمد، فأخبرونا: أديننا خير، أم دين محمد؟.

فقام الفاسق يجأر بصوت الشيطان، قائلا:

– اللهم أنتم أولى بالحق منه، إنكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على سـقاية الحجيج، وتنحرون البدن لله، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، ولم تأتوا ببدع جديدة، فدينكم خير من دينه!!.

ولمزيد من التأكد من صدقهم، قال أبو سفيان:

– أفلا نخرج إلى ألهتنا فتتقربون إليها وتنحرون.

وصرخ الشيطان فى وفد اليهود، محرضا وناصحا، فقال:

– لا تنكصوا اليوم، مالئوهم تظاهرا ونفاقا.

وذهبـت يهـود إلى: آسـاف ونائلة، وود وياغوث ونسـرا، ومناة.. تتظاهر، فتنحنى، وتسـجد، وتنحـر، وتتقرب زلفى، وهم كارهون، ولأن نفاقهم وكذبهم كان عظيما، قال فيهم رب العالمين فاضحا مكرهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٥١].

وتحت أستار الكعبة، تعاقدت اليهود مع قريش على ألا يختلفا، وأن تتوحد كلمتهم ولا يكون لهم هدف أو سعى، إلا أن يستأصل محمد وصحبه!!.

واسـتمرت اليهـود فـى تحريضها لقبائل العـرب، إما بإغرائهم بالمال والسـلاح، وإمـا بترهيبهم من زوال نفوذهم وضياع شـأنهم، إن قويت شوكة محمد ﷺ، حتى اجتمعت كلمتهم على حرب رسول الله ﷺ.

وبلـغ نبى الله ﷺ بما تعاهدت عليه قبائل العرب، فجمع إليه أصحابه يستشـيرهم ويسـتمع إلى ما يفتح الله به عليهم، وانسـحب سـلمان الفارسـى من بينهم، واتجه إلى الخلاء، وجلس فوق أحد التلال المحيطة بالمدينة، يتأمل ويتدبر فى كيفية مواجهة هذا الموقف العصيب، الذى وضعت فيه يهود مدينة الإسلام، فرأى عظيم صنع الله تعالى، فالمدينة قد تسورت بالجبال من كل جانب، بينما لم يترك للمرور إليها غير جزء بسيط منبسط، وتهلل وجه سلمان فرحا بما أراه الله، وبصره به، ونزل مسرعا إلى المسجد، حيث انعقد مجلس المشورة، وقال:

– يا رسـول الله، نحفر خندقا فى الجزء المنبسـط من مداخل المدينة، كذلك الذى كان أهل فارس يتحصنون خلفه إذا ما وفد عليهم مغير.

ولم يقل سلمان:

– نحفر خندقا مثلما كان يفعل أهلى بفارس.

لأنه كان يعتز دائما بما هداه الله تعالى إليه، ويقول:

– إنما سلمان ابن الإسلام.

وسلمان هو النموذج المثالى للإنسان حينما تدركه نعمة الإسلام، فلقد كان ابنا وحيدا لأب ثرى، من رجـال الديـن ببلاد فارس، ولأن عقيدة أهله عبدة النار لم تتفق وفطرتـه، ترك الثراء والنعيم، وخرج يسـعى مهاجرا فى سـبيل الله، يبحث حتى وجد قبولا لدى المخلصين من أهل المسيحية، وحين قرأ عليه آخر القساوسة الذين عاشرهم ما جاء على لسان المسيح من بشارة بأحمد، وقال له القسيس معقبا أنه قد قرب موعد ظهور النبى الخاتم، وأنه سـيظهر بطيبة، ولم ينتظر سـلمان، وشق طريقه إلى حيث الملتقى، ورضى أن يكون عبدا عند يهودى متغطرس بطيبة، انتظارا لقدوم البشير، وحين سمع بنزوله بقباء، لم يسـتطع صبرا، وأسرع خارجا من طيبة ليلقاه هناك، ولما تكشفت له علامات النبوة التى دله عليها القسـيس، أعلن أمام رسول الله ﷺ إسـلامه، وقص على الحبيب قصته، وسارع إخوة الإسلام يعينونه، ويجمعون له المال، ويساعدونه فى العمل، حتى تحرر من رقه.

وحين سمع رسـول الله ﷺ، ما أشار به سلمان، دعا له بالخير، وسارع المسلمون يحفرون خندقا عميقا بطول الجانب المكشوف من المدينة، كان الكل يعملون فى إخلاص، فمنذ إشراقة النهار، وحتى مغرب الشـمس، وهم يحفرون، ويرفعون التراب ليجعلوا منه سـاترا وعائقا للعدو، ورسـول الله ﷺ مثلهـم، يعمـل ما يعملون، ويربط حجرا على بطنه إذا ما اشـتد عليـه التعب والجوع؛ ولم ينقطع عن العمل قادر، ولم يتخلف عنه فرد من أهل المدينة، إلا المنافقون واليهـود.

ولما انتهوا من حفر الخندق، وصل إبليس يتبختر فى عنجهية وخيلاء، فيما يزيد على عشرة الآلاف مشرك وكافر من أنصاره، ترج حركتهم الأرض رجا، وتثير عيرهم وخيلهم سحبا من الغبار تغطى عين الشـمس؛ لكنه هلع واستشـاط غضبا، حين رأى الساتر الترابى ومن أسفل منه الخندق عميقا، يضرب فى باطن الأرض، ليكون سدا يحول بين جنوده، وجند الله، وصاح أبو سفيان فى حنق:

– والله ما هذا من صنع العرب، وإنها لكيدة.

وكتب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ..

«باسمك اللهم فإنى أحلف باللات والعزى، لقد سرت إليك فى جمع، وأنا أريد ألا أعود إليك أبدا حتى أستأصلك، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق، ولك منى يوم كيوم أحد تبقر فيه النساء».

وبعث إليه رسول الله ﷺ بالرد يقول..

«أمـا بعـد، فقد أتانى كتابك، وقديما غرك بالله تعالى الغرور، وأما ما ذكرت من أنك سـرت إلينا، وأنـك لا تريد أن تعود حتى تسـتأصلنا، فذلك أمر يحول الله تعالى بينـك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك».

وأراد خالد بن الوليد أن يكرر فعلته، ويلتف فيجتاز الخنـدق، من جانبه الضيق، لعل المسـلمين يكونون عنه غفلا، فيأخذهم من خلفهم على حين غرة، ويعجل بإنهاء الحرب، كما فعل يوم «أحد»؛ فصحـب معه مجموعة من الفرسـان، واندفعوا محاولين اجتيازه، ولكن ليـس ما يدرك مـرة يتكرر فى

كل مـرة، فلقد رماهم المدافعون عن المدينة بالسـهام والحجارة من مرتقاهم بالجبال، وجعلوهم يؤثرون النكوص على أعقابهم مدحورين!.

وأعمل إبليس فكره، فوجد أنه لكى يتحقق له النصر فى أسرع وقت، لابد من إيجاد حليف داخل المدينة، يطعن المسـلمين فى ظهورهم، فيشـغلهم عن الخندق، بما يتيح له ولأنصاره العبور، ولم يكن هناك غير يهود بنى قريظة، وأعلن حيى بن أخطب أنه كفيل بهذه المهمة، وتسلل فى ظلام الليل إلى حصن كعب بن أسد القرظى، وحين رآه كعب، أوصد أبواب الحصن فى وجهه، فراح حيى يتوسل إليه ليفتح، وكعب يرفض، فأخذ حيى يناوره ويحاوره، حتى فتح له وأدخله، فقال له حيى معاتبا:

– ويحك يا كعب، تقفل بابك فى وجهى، وقد جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش والعرب على قادتها وسادتها، وعاهدونى على ألا يبرحوا، حتى نستأصل محمدا ومن معه.

قال كعب:

– ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشئوم، وقد جئتنى والله بذل الدهر، وإنى قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بينى وبينه، فلم أر منه إلا صدقا ووفاء.

وأخـذ حيى يزين الكلمات، ويمنى بالعـزة والنصر، حتى لان كعب، ووافق على أن ينقض عهده، وأعلن أنه برىء مما بينه وبين رسول الله، ولكنه اشترط أن يأخـذ خمسين رهينة من سادات قريش، حتى لا تتركه قريش فريسة للمسلمين وترحل إلى ديارها، إذا ما تراءى لها أن تنكص عن حربها محمدا.

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما حدث، فتكلم به عند رسول الله ﷺ، فبعث بمن يستوثق مما يشـاع، فعاد الرسـل يؤكدون أن يهود بنى قريظة قد أعلنوهم بنقض عهدهم مع رسـول الله ﷺ، فبشر نبى الله المسلمين، قائلا:

– أبشـروا يا معشـر المؤمنين بنصر الله تعالى وعونه، إنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وأخـذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم فى سبيل الله.

وعلى رغم بشـارة البشـير ﷺ، توجس المسلمون من هذا البلاء، الذى زاد موقفهم سوءا، واشتد بهم الكرب وزلزلوا زلزالا، وأرجف المنافقون قائلين:

– أيبشرنا محمد بملك كسرى وقيصر، وبيوتنا أصبحت عورة، وبات الواحد منا لا يأمن على نفسه إذا ما طلب الخلاء.

ثم أخذ المنافقون يوسوسـون بين الناس أن عـودوا إلى دياركم وانكصوا عهدكم مع محمد، ولما امتنع المؤمنون عليهم، بدءوا يفتعلون الحجج، يسـتأذنون رسـول الله ﷺ فى العودة إلى دورهم لأنها عورة، ونبـى الله ﷺ يـأذن لهـم، ولا يمنعهم مـن ترك موقع القتـال، فلقد كان يعرف أنـه لا خير فيهم، ووصل عددهم إلى ثلاثمائة، وقد نزل فيهم قول الله تعالى، من سـورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ

لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ۞.

أمر رسول الله ﷺ بحصار بنى قريظة، وسير إليهم من المسلمين ما يزيد على مائتى رجل، وحين هموا بالغدر، وتجهزوا بالسلاح للإغارة على المدينة ليلا، فوجئوا بقوات الحصار تحيط بهم، فزلزلهم الله زلزلة أوقعت الرعب فى قلوبهم، فتكصوا عائدين يرعدون إلى حصونهم، وهم يلعنون حيى لأنه هو الذى أشار عليهم بنقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، خاصة وقد رفض القرشيون مطلبهم بتسليم الرهائن، بعدما سمعوا أن اليهود سيسلمون رهائنهم إلى محمد ﷺ إذا ما هزموا، وقابلوا عرضهم بعرض مماثل، وطلبوا خمسين رهينة من سادة اليهود، وبدت أنياب الغدر ظاهرة بين طرفى التعاهد، فانفض العقد قبل أن يبرم، وباءت اليهود بالعار والحصار.

وتمر الأيام تلو الأيام، وجنود المشركين لا ينفكون عن مناوشة المسلمين، ولما لم يجدوا لسعيهم نتيجة، ولما ضاقت بهم السبل، وطال بهم البقاء فى الخلاء، خرج سادتهم فاقتحموا بخيلهم جزءا ضيقا من الخندق، ولكن المسلمين ردوهم بعنف، فوقف عمرو بن عبد ود العامرى، يجأر طالبا النزال، وكان عظيم الجسم شرسا فى قتاله، ما نازل أحدا إلا صرعه، وقد صحب معه «الزبير بن عبد الله» و«هبيرة بن أبى وهب» جناحين، فطلب على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يأذن له رسول الله ﷺ بقتاله، فعممه وأعطاه سيفه، ودعا له قائلا:

– اللهم أعنه عليه.

وخرج «على بن أبى طالب» رضى الله عنه ومن حوله جناحاه: «الزبير بن العوام»، و «عمر بن الخطاب» وتبارز الخصمان، ونصر الله عليا، وقتل المتعاظم بعد أن استتابه فلم يتب، وهجم عمر والزبير على جناحيه فأصاباهما، فتراجعا منهزمين، مخلفين وراءهما جثة عمرو، وارتفع صوت المسلمين من فوق ذرى الجبال بالتكبير:

– الله أكبر.. الله أكبر..

فأوبت معه السماوات والأرض والطير:

– الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

وازداد شؤم المشركين، وأرسلوا يفتدون جثة عمرو بعشرة آلاف درهم، ولكن رسول الله ﷺ ردها إليهم، ورفض الدية، قائلا:

– لسنا نمنعكم أن تدفنوه، ولا نأكل ثمن الموتى.

ويزداد مر الأيام كآبة على المشركين، وهم قعود فى صحراء جرداء، منذ ما يقرب من الشهر، لا يستطيعون تقدما ولا حربا، ويتناقص طعامهم ويشح، فلم يخطر لهم وهم فى كل ذاك الجمع، وكل تلك القوة والمنعة، أنهم سيقيمون أكثر من ليلة أو ليلتين بالعراء قبل أن يكونوا فى بيوت المدينة يستدفئون، ويستحلون حرماتها، ويسبون نساءها، وينتهبون أموال المسلمين فيها؛ ولهذا لم يحملوا معهم من الطعام إلا ما يكفى رحلة السير من مكة إلى المدينة، ولقد أمسى حال دوابهم أسوأ من حال رجالهم، فلقد حصد المسلمون زرعهم قبل أن يصلوا إلى مشارف الديار، فجاءوا الأرض وهى جدباء، بلا زرع ولا ماء، وحين أراد «حيى بن أخطب» أن يسرب إليهم قافلة من عشرة جمال، محملة بالشعير من بيوت يهود بنى قريظة، أوقفها الله ومنعها عنهم، بأن أعثر بها جماعة من المسلمين، خرجت تشيع جنازة مسلم مات، فأخذت العير بما حملت، بينما فر حيى يجر أذيال الخيبة، ويلعنه المسلمون والكافرون، وتبدل حال المسلمين، فطعموا، وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم.

وكان رسول الله ﷺ لايكف عن الدعاء والتوسل إلى الله تعالى، قائلا:

– اللهم فادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم، فلا يغلبهم أحد غيرك. اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم.

ولما سأله الناس قائلين:

– يا رسول الله، هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟.

قال نبى الله ﷺ:

– نعم، قولوا: اللهم أستر عوراتنا، وآمن روعاتنا.

وحين أظلمت السماء، قام فى المسلمين فقال، ووجهه مشرق بالبشر:

– يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإن لقيتم العدو فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

واشتد الظلام، حتى كان الرجل لا يكاد يرى بنانه، ثم أرسل الله بالريح، فكانت على المشركين ريحا صرصرا عاتية، تتفجر من خلالها الصواعق والبرد، فاقتلعت خيامهم، وأرعبت قلوب رجالهم، وجعلت كل أمانيهم أن يعودوا من حيث جاءوا!!.

وسأل رسول الله ﷺ من حوله قائلا:

– أما رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة؟.

وكان حوله من المسلمين ثلاثمائة رجل، فلم يجبه أحد، خوفا من ذاك الهول الذى أنزله الله على

الجانب المقابل من الخندق، فتخير ﷺ، حذيفة رضى الله عنه وكان قد جلس يقرقر من شدة البرد، وقال له:

- يا حذيفة: قم أنت.

قال حذيفة رضى الله عنه وأسنانه تصطك:

- يا رسول الله، ما منعنى أن أقوم إلا شدة البرد، مرنى بما شئت.

قال رسول الله ﷺ:

- ما بك بإذن الله من برد ولا حر، اذهب حتى تدخل بين ظهر القوم، فأت قريشا فقل: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا: أين قريش، أين قادة الناس أين رؤوس الناس؟!.. فيقدموكم، فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم؛ ثم ائت بنى كنانة، فقل: يا معشر بنى كنانة، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا: أين بنى كنانة، أين رماة الخندق، فيقدموكم، فتصيبوا القتال، فيكون القتل فيكم؛ ثم ائت قيسا فقل: يا معشر قيس، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا: أين قيس، أين أحلاس الخيل؛ أين الفرسان، فيقدموكم، فتصلوا القتال، فيكون فيكم القتل؟..

وذهب حذيفة فوجد القوم فى شر حال، والريح تحمل عليهم الحجارة وترميهم بها؛ فقال ما قاله له رسول الله ﷺ؛ فتنادوا بالرحيل، حتى ان أبا سفيان ركب جمله متعجلا وهو فى عقاله؛ فما استطاع النهوض إلا بعد أن فكوا عقاله.

يقول حذيفة رضى الله عنه:

- عدت إلى قومى، وقد رجعت أقرقر من البرد، فإذا بفارسين ملثمين، يعترضان طريقى ويقولان لى:

- أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود والريح.

فلما وصلت مكان رسول الله ﷺ وجدته يصلى، فلما انتهى اقتربت منه فغطانى بفضل بردته، فأخبرته بما رأيت وأخبرت، فقال رسول الله ﷺ:

- الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم، لا إله إلا الله وحده: أعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شىء بعده.

وسجد رسول الله ﷺ لله شكرا على نصره للمؤمنين، وسجدت خلفه: ثم اعتدل فحمد الله كثيرا. ونزل قول رب العالمين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الأحزاب - الآية ٩].

وصرف الله الأحزاب عن المدينة وهم فى شر حال، وأذرى منظر، وانصرف جند الله إلى بيوتهم مهللين مكبرين.

٦

كان الوقت قبل الآذان لصلاة العصر بقليل، ورسول الله ﷺ فى بيته، لم ينته بعد من الاغتسال من تراب الطريق، حين جاءه جبريل بأمر ربه:

– لا تنزع عنك لباس الحرب، وانهض وسر بجندك إلى يهود بنى قريظة الذين خانوا عهد الله ورسوله.

وبعث رسول الله ﷺ مناديا ينادى فى الناس، قائلا:

– يا خيل الله اركبى.

وأمر بلال فنادى:

– من كان سامعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة.

وأسرع الناس فمن كان منهم قد دخل داره خرج، ومنهم من كان بالطريق فتحول، واجتمعوا محاصرين لقلاع اليهود، فاستقبلوهم من فوق أسوار حصونهم يسبونهم ويسبون رسول الله ﷺ بأقذع الألفاظ، وراحوا يرمونهم بالنبل والحجارة، والمسلمون يردون عليهم الرمى بمثله، فلما وصل رسول الله ﷺ، حاول على رضى الله عنه أن ينزل رسول الله منزلا يبعد عن ديارهم، حتى لا يسمع شتمهم، ووسخ كلامهم، ولكن نبى الله ﷺ قال له:

– يا على، أظنك سمعت منهم لى أذى؟.

قال على:

– نعم يا رسول الله.

قال ﷺ:

– لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا.

وسار رسول الله ﷺ إليهم، وتقدم أسيد بن حضير رضى الله عنه يسبقه، جاعلا من جسده درعا يدرأ عن الحبيب أى أذى قد يريده به اليهود، ولما اقترب من مدى يسمعون فيه صوته، رفع أسيد صوته قائلا:

– يا أعداء الله، لا نبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعا، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر.

فقال اليهود:

– يا بن الحضير، نحن مواليك دون الخزرج.

قال أسيد رضى الله عنه:

– لا عهد بينى وبينكم، ولا إلاً، ولا ذمة.

وتقدم رسول الله ﷺ، فنادى كبارهم، ثم قال:

– هل أخزاكم الله، أتشتمونني؟.

فجعلوا يحلفون قائلين:

– ما فعلنا.

ثم قالوا متوددين:

– يا أبا القاسم، ما كنت فاحشا.

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه، وأحاط الحصن بالرماة، ثم تعاقب الرماة، فوجا من بعد فوج، يرمون اليهود بالنبل، وشل الخوف أيدى من خانوا الله، وتنزل بهم الرعب فلم يعودوا يدرون ماذا هم فاعلون، وتوقفوا عن رمى المسلمين، ونادوا قائلين:

– دعونا نكلمكم.

قال رسول الله ﷺ:

– نعم.

فبعثوا رسولا منهم، فتحدث إلى رسول الله ﷺ فى أن ينزلوا على ما نزل عليه يهود بنى النضير، فرفض رسول الله.

فقال رسول اليهود:

– تحقن دماءنا، وتسلم لنا النساء والذرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل.

فرفض رسول الله ﷺ، إلا أن ينزلوا على حكمه.

ولما عاد رسولهم إلى الحصن، وقف فيهم كبيرهم سعد بن أسد فقال:

– يا معشر بنى قريظة، والله قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم أمورا ثلاثا، فخذوا منها ما شئتم.

قالوا:

– ما هى؟.

قال سعد:

– نتابع هذا الرجل ونصدقه، فو الله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم، والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى، وما منعنا من الدخول فى دينه إلا الحسد للعرب، وأنه لم يكن من بنى إسرائيل؛ ولقد كنت كارها لنقض العهد والعقد..

وتوقف عن الكلام، وأشار حيث جلس حيى بن أخطب، ثم قال:

– ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس؛ حين قدم عليكم؛ أتذكرون قول حبرنا أبى جواس حين قدم علينا يقول: لقد تركت الخمر والخمير والتمير، ولجأت إلى السقاء والتمر والشعير، وسألتموه: وما ذاك، فقال لكم: إنه يخرج بهذه القرية نبى، فإن يخرج وأنا حى أتبعه وأنصره، وإن خرج بعدى، فإياكم أن تخدعوا عنه، واتبعوه، فكونوا أنصاره وأولياءه، وقد آمنتم بالكتابين، كليهما: الأول والآخر؛ وأقرئوه منى السلام، وأخبروه أنى مصدق به.

وتوقف كعب قليلا عن الكلام، ثم قال:

– فتعالوا نحكم العقل، ونتبع وصية حبرنا، فنتابعه ونصدقه.

وهاجت اليهود، وتصايحوا:

– لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره.

قال كعب:

– فإذا أبيتم هذا، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا نخاف عليه، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء.

وتصايح الحاضرون مستنكرين مقولته، قائلين:

– أنقتل هؤلاء المساكين؟!.. فما خير فى العيش من بعدهم.

قال كعب:

– فإن أبيتم هذا، فإن الليلة ليلة سبت، وأنه عسى وأن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا مستنكرين:

– أنفسد سبتنا، ونحدث فيه؟!.. ولم يحدث من قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما أصابه من المسخ.

قال كعب فى غضب:

– ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه، ليلة واحدة من الدهر حازما.

وقال نفر منهم:

– يا معشر بنى قريظة، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأن صفته عندنا، وحدثنا بها علماؤنا، وهذا حيى بن أخطب أولهم.

قالوا:

– لا نفارق التوراة.

ولما رأى هؤلاء النفر ممن شرح الله صدورهم للإسلام، تسللوا ليلا إلى رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم، فأمنوا على دمائهم وأموالهم وأهليهم.

وتمر بهم الليالى والأيام، ولا يقر لهم قرار، فهم فى شقاق دائم، فلا هم يريدون القتال، ولاهم يريدون دفع الجزية، لأنهم فيما يرون أنفسهم، أعظم شأنا من العرب، وبعد خمسة عشر يوما تنادوا فيما بينهم أن يخرجوا إلى المسلمين بعد أن كادت الذرية تهلك من قلة الطعام والماء، وقبل رسول الله ﷺ أن يحكم فيهم سعد ابن معاذ، وقال سعد رضى الله عنه:

– يقتل مقاتلوهم، وتسبى نساؤهم وذريتهم، وتقسم أموالهم.

قال رسول الله ﷺ لسعد:

– لقد حكمت فيهم بحكم الله.

وأنزل الله تعالى، قوله بسورة الأحزاب: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

٧

أصاب انتصار المسلمين على الأحزاب العرب بالتوتر، فلما كان ما أنزل بيهود بنى قريظة، اشتد الخوف والغضب بمن يحيطون بالمدينة من أقوام، ومنهم الحارث بن ضرار، سيد بنى المصطلق، الذى عزم على حرب المسلمين، ودعا قومه والقبائل من حوله للتجمع للحرب، ولما سمع رسول الله ﷺ بما عزم عليه، بعث بمن تحرى الحقيقة، ثم جلس إلى أصحابه وأبلغهم بما عرف، فأجمعوا على الخروج إلى ديار بنى المصطلق.

وزحف من المدينة جيش كبير انضم إليه جمع من المنافقين بقيادة زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول، طامعين فى مشاركة المسلمين فيما سيغنمون، وحين رأت القبائل التى استنفرها الحارث بن ضرار ضخامة جيش المسلمين تفرقوا من حوله، وتركوه وقومه، فأرسل رسول الله ﷺ يدعوهم للإسلام بدلا من الحرب فأبوا، ودار القتال، وانتصر جند الله نصرا عظيما، وغنموا أموال بنى المصطلق ودوابهم، وأسروا رجالهم، وسبوا نساءهم.

وتزوج نبى الله ﷺ من ابنة سيد بنى المصطلق، لعل الله جاعل فى مصاهرتهم خيرا، ولما سمع المسلمون بذلك أطلقوا أسراهم وقالوا:

– أصهار رسول ﷺ.

وتسابق من أطلقوا من الأسر، إلى الدخول فى سماحة الإسلام، واهتاج إبليس، واشتد غضبه مما يرى من أنصاره القدامى، فأثار الفتنة بين شابين أحدهم من موالى المهاجرين، والثانى من موالى الأنصار فاختصما، فنادى من هو من

الأنصار قائلا:

– يا للأنصار.

ونادى من هو من المهاجرين:

– يا للمهاجرين.

وتسابق كل فريق يلبى الدعوة، وكاد الشيطان أن يصيب المسلمين بالفتنة، ولكن رسول الله ﷺ خرج عليهم بكلمات أماتت نفث الشيطان. قال ﷺ:

– ما بال دعوى الجاهلية، من دعا بدعوى الجاهلية كان محشى جهنم.

قال من تابوا وثابوا إلى الله:

– يا رسول الله، وإن صام، وإن صلى، وإن زعم أنه مسلم؟!.

قال نبى الله ﷺ:

– وإن صام، وإن صلى، وإن زعم أنه مسلم.

وانصرف المتخاصمون بعد أن تصالحوا، وكل منهم يشعر بضآلة شأنه، وأسفه على نفسه لقلة إيمانه، ولاستجابته لنزغ الشيطان، وكل منهم يقول:

– ليتنى استعذت بالله العلى القدير من الشيطان الرجيم.

ولكن هل يكف الشيطان يده ولسانه، عن بث السم فى النفوس؟

لقد تلبس نصيره عبد الله بن سلول، فاجتمع إلى بعض من قومه، وجيش المسلمين قد عسكر للراحة، وهو فى طريق عودته إلى المدينة، وقال لهم:

– والله ما رأيت كاليوم مذلة، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، وأنكروا ملتنا، والله ما حالنا معشر الأنصار مع جلابيب قريش، إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وكان بين من تكلم إليهم زيد بن أرقم، فحمل ما سمع إلى رسول الله ﷺ، وواجه رسول الله ﷺ عبد الله بما قال، فأنكر أن يقول ما قال، وهو قد قال!!.

ثم أذن المؤذن فى الناس ليسيروا، وقد اشتد الحر، وعجب صحابة رسول الله ﷺ، وعلموا أنه لا يكون إلا لحكمة أرادها نبى الله ﷺ، فذهب إليه من الأنصار أسيد بن حضير، متسائلا، قال:

– يا رسول الله، لقد رحلت فى ساعة ما كنت ترحل فى مثلها؟!!.

فأخبره الحبيب بما قال صاحبهم، فقال أسيد:

– فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الأذل، وأنت الأعز.

وسمع عبد الله بن عبد الله بن سلول، بأن هناك من المسلمين من أحل دم أبيه،

بعد أن نزل فيه قرآن يؤكد ما نقل عنه من قول الكفر، فقال الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٤].

فذهب عبد الله إلى رسول الله ﷺ، وجلس بين يديه، وقال:

– يا رسول الله، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن سلول، لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا، فامرنى أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى، وإنى لأخشى إن غيرى يقتله، فانظر إلى قاتله يمشى فى الناس فأقتله، فأكون قتلت مسلما بمنافق فأدخل النار.

قال الحبيب ﷺ :

– لا نقتله، بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقى معنا..

وإن سكنت نار الفتنة، فإن الشيطان متربص ينفخ فى جذوتها لتشتعل من جديد.

(٨)

عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها زوج رسول الله ﷺ أنها قالت:

– كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين زوجاته، فأيهما خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ، فأقرع بيننا، فخرج سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنت أحمل فى هودجى، وأنزل فيه، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته لبنى المصطلق، آذنوا بالرحيل.

وذات ليلة مشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى، أقبلت إلى رحلى، فلمست صدرى، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى، فاحتملوا هودجى فحملوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه، وهم يحسبون أنى فيه – وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم ـ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ورفعوه، فبعثوا الجمل فساروا؛ ووجدت عقدى بعدما سار الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلى الذى كنت به، وظننت أنهم سيفتقدوننى فيرجعون إلى، فبينا أنا جالسة فى مكانى غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش، يجمع ما نسيه الناس عند رحيلهم، فرأى سواد إنسان نائم، فرفع صوته، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فاستيقظت على استرجاعه، فخمرت وجهى بجلبابى، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول، فهلك من هلك، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرا، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك، ويريبنى أننى لا أجد من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول:

– كيف تيكم؟.

ثم ينصرف، فذلك كان يريبنى ولا أشعر بالشر حتى نقهت، فخرجت مع أم مسطح وأمها خالة أبى، فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددت مرضا على مرضى، فلما رجعت إلى بيتى، دخل علىَّ رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال:

– كيف تبكم؟.

فقلت له:

– هل تأذن لى أن آتى أبوى؟.

فأذن لى رسول الله ﷺ فقلت لأمى:

– يا أماه، ماذا يتحدث الناس؟!.

قالت:

– يـا بنيـة، هونى عليـك، فوالله لقلما كانـت امرأة قط وضيئـة عند رجل يحبهـا، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

فقلت:

– سبحان الله، أوقد تحدث الناس بذلك؟.

فبكيت تلك الليلة حتى أصبح لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى، ودعا رسول الله ﷺ: على بن أبى طالب وأسامة بن زيد، يسألهما، ويستشيرهما فى فراق أهله، أما أسامة فأشار على رسـول الله ﷺ بما يعلمه من براءة أهله، وأما على فقال: يا رسـول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بربرة وقال:

– أى بربرة، هل رأيت شيئا يريبك؟.

– قالت له بربرة:

– والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمـرا قط يسوء، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله.

فقام رسـول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول، وهو على المنبر، فقال: «يا معشر المسلمين، من يعذرنى من رجـل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه خيرا، ولا يدخل على أهلى إلا معى».

فقام سعد بن معاذ، فقال:

– أنـا يا رسـول الله أعذرك، فـإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان مـن إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة، فقال له:

– كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل.

وثار الحيان من الأوس والخزرج حتى همـوا أن يقتتلوا، ورسـول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت، فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحـل بنوم، وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما، حتى لأظن أن البكاء فالق كبدى.

فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى، فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكى معى، فبينا نحن على ذلك، دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء، فتشهد رسول الله ﷺ، ثم قال: يا عائشة، إنه بلغنى عنك كذا.. وكذا.. فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت لممت بذنب، فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب، تاب الله عليه.

فقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى:

- أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال.

فقال أبى:

- والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمى:

- أجيبى رسول الله ﷺ عنى فيما قال.

قالت أمى:

- والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

قلت:

- لقد علمت أنكم قد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة، لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر - الله يعلم أنى منه بريئة - لتصدقنى، فو الله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

ثم تحولت فاضطجعت على فراشى، والله يعلم أنى حينئذ بريئة، وأن الله مبرئى ببراءتى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها، فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات، ثم سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك. فكانت أول كلمة تكلم بها، أن قال: يا عائشة أما الله قد برأك.

فقد نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة النور - الآية ١١].

□□□